في الحقيقة والواقع

لا بد من الذهاب الى القاضي..هذه المرة!

عادل العامل

عندما كتبت مرة عن ان غزو الادباء لدوائر العمل الصحفي قد اضر بالمستوى المهني للصحافة وبالمستوى الابداعي للادباء، فاني انطلقت في ذلك من حقيقة علمية عملية معروفة، وهي اهمية التخصص او الاختصاص في التطور والابداع. ينطبق هذا على الادب والصحافة مثلما ينطبق على الزراعة والصناعة والتعليم والاعمار والتجارة والفنون والرياضة والامن وغيره من مجالات النشاط البدني والفكري المختلفة، لان المختص بمجال ما يكون عادة اكثر خبرة ومعرفة بطبيعة هذا المجال والامور المؤثرة فيه سلباً وايجاباً، وان بدا انجاز بعض المتطلبات بالنسبة لبعض الناس لا يحتاج الذهاب الى القاضي، كما يقول المثل الشعبي!

فكم افسدنا، نحن غير المختصين، من اشياء في حياتنا الشخصية والمنزلية، على سبيل المثال، لاننا ظننا، وبعض الظن اثم هنا، ان اصلاح حالها امر بسيط ولا يحتاج البت في ذلك للذهاب الى القاضي. فضلاً عن ان قيامنا بهذه المهمة (التافهة) في البيت، حيث لدينا كل ما يلزم ذلك من (درنفيسات) واسلاك وسكاكين وسيجارة يتصاعد منها دخان العلم والمفهومية، سيوفر علينا المال والوقت والجهد الذي سيذهب (عبثاً) في نقل الجهاز العاطل للتصليح عند مختص قد لا يفهم فيه اكثر مما نفهم، نحن العارفين في كل شيء! وتكون النتيجة، في العادة، خسارة المال والوقت والجهد، والجهاز ايضاً!

ولنأخذ مثالاً آخر، يصلح في هذا الاطار، على مثل هذه الامور (التافهة) التي لا يحتاج الافتاء فيها الذهاب الى عالم ديني او الى القاضي، وهو الاشتغال بالبقالة وبيع اللحمة والخضار وما الى ذلك، فكل ما يحتاج اليه الواحد اليوم ليكون بقالاً او بائع خضراوات هيكل طاولة مكسورة او سرير نوم خربان وصوت عال ملحاح وسلعة قابلة للاكل! هذا كل شيء. اما النتيجة، فغش في البيع، وسوء ادب مع المشتري، وتلوث بيئي، واستهتار بالقانون، وتشويه لاصول البيع والشراء التي يقوم عليها العمل التجاري المثمر الاصيل. كل ذلك لان هؤلاء الباعة ليسوا باعة وانما هم طلاب تركوا مدارسهم وعمال وموظفون عاطلون وبروليتاريا رثة لا علاقة لهم بتقاليد الشغل ولا يهمهم ما يسيئون اليه ما دام الناس يشترون، والقانون غائباً، المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين!

واذا ما وجد مثل هؤلاء العاملين في غير اختصاصاتهم، وهم موجودون فعلاً، في معاهد التربية والعلم، ومواقع العمل والانتاج ومراكز السلطة والأمن الوطني، وتشكيلات النشاط السياسي والاجتماعي، فان الامر يستوجب فعلاً الذهاب الى القاضي بأسرع ما يمكن، فقد ذهب الى غير رجعة ذلك الزمن الذي كان القدر يستدعي فيه ضابطاً كامل الاوصاف من ساحة العرضات الى مبنى الاذاعة والتلفزيون ليصلح حال الازمة فيزيدها سوءاً على سوء، او يتولى فيه الرفيق الحزبي رعاية الناس من حوله وفقاً لنوازعه البهيمية في ضوء (فكر) القائد الذي لم يحفظه الله، اكثر من ذلك، لحسن الحظ!

العراق على خلفية الاحتفال بستينية النصر على الفاشية

فالح الحمراني

يلوح طوفان الأنباء اليومية المتدفقة من كل الجهات كأنها متناقضة لاجامع بينها. ولكن التمعن في خلفياتها يقنعنا بان قوانين التاريخ البشري واحدة، و أن الحكمة الإنسانية لايمكن أن تتجزأ أبدا. ففي الوقت الذي نشعر فيه بالصدمة من هول الأعمال الإرهابية المتواصلة في المدن والقصبات العراقية، حيث تُشَغِّل قوى الظلام والشر يوميا طاحونة الموت، تترامي لأسماعنا أنباء المحافل الدولية بالذكرى الستينية للنصر على الفاشية الألمانية. " انه احتفال والدموع في العيون" ، على نحو ما يقول أديب روسي كبير، لان البشرية قدمت التضحيات الجسام لتحقيقه.إن هناك جامعا بين ما ارتكبته وترتكبه الفاشية في العراق وما مارسته الفاشية الهتلرية في ألمانيا والدول التي سيطرت عليها ، فكلاهما مارس الأساليب نفسها وانطلق من المنطلقات النظرية نفسها(أعيدوا قراءة عفلق والنظر في ممارسات البعث في العراق من هذا المنحى).

إن كارثة الحرب العالمية الثانية، التي حصدت عشرات الملايين من مختلف الأمم والأعراق ،أنضجت إدراك الشعوب بالثمن الذي لا يقدّر لحياة الإنسان، وسنت الدول في دساتيرها وقوانينها ما يفيد بان حياة الإنسان ،أي إنسان كان،اثمن قيمة على هذا الوجود، وغدت حقوقه من بين المقدسات التي تثير انتهاكها الفضائح. ذلك هو وعي الحرب، ذلك هو الاستنتاج الذي بلغته الشعوب والأمم التي عرفت بجلدها ما تعني معسكرات الموت والحرق والابادة المجانية للناس التي نضجت على نيرانها. ذلك ما علَمَته مشاهدة المقابر الجماعية وأنقاض المدن التي خلفها الفاشيون الألمان وراءهم، وليس التوازن الاستراتيجي وحده هو ما منع قيام حرب عالمية تقليدية خلال الستين عاما الماضية، بل وعي كارثية الحرب ومأساويتها ، بل عبثيتها. في روسيا ،الناس اعتادوا على القول :" نقبل كل شيء، لكي لا تنشب الحرب ، لكي لايُقتل الإنسان"، تلك هي فظائع الحرب والقتل المجاني للإنسان، و ذلك هو الرد على معسكرات العمل المجاني والقتل الذي مارسه جوزيف ستالين.انه العلو نحو وعي ومفاهيم جديدة.

على خلفية ذلك الوعي ،نشاهد اليوم في العراق وعيا عكسيا و مخالفا، وعيا لا يقيم مثقال ذرة لحياة الإنسان، وعيا يجعل من ابادة الإنسان مبدأ وسنة وقانونا و ستراتيجية وتكتيكا في آن واحد. ولم تشحذ المقابر الجماعية التي خلفها الحكم الدكتاتوري في العراق قلوب وأرواح أصحاب المنحي العقلاني الذين يمارسون القتل من شراذم البعث والأغراب الذين جعلوا أنفسهم (أداة موت) وعبوات ناسفة، ولم تطهر الجرائم قلوب(القتلة مع سبق الإصرار)، الذين لم يشعروا بالندم من درس اجتياح الكويت وما خلفه من مشاهد الموت والرعب والدمار، دعك عن البعد القومي والإنساني العام، لم يتذكروا ضحايا الحرب مع إيران،لم يأسفوا لأن العراق ،ذلك البلد الواعد دائما بمياسيم التجدد والإبداع والتطلع إلى النجوم البعيدة ،تحول إلى أنقاض وساحة للموت. إنهم يسعون بكل ما في جهدهم اليوم لعرقلة الشرائح الاجتماعية التي وعت الفادحة وأعلنت نيتها بتغير مسار التاريخ وإعادة النظر في الوعي الارتقاء بدرجة أعلى في سلم التحضر التي تمنع تحويل حياة الإنسان إلى سلعة مجانية.

ان التاريخ يضع دائما ظلالا من الشكوك على المآثر التي يفعلها العظماء إذا كانت على حساب حياة الإنسان والمقامرة بها. وإذا كان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين رفض ،في حديث لوسائل الإعلام الألمانية، مساواة جوزيف ستالين بأدولف هتلر انطلاقا من أن ستالين لم يعلن الحرب على دول أخرى، فإنني أقارن صدام بهتلر دون تردد، لأنه شن حروبا غير عادلة على دول أخرى وحفر المقابر الجماعية، ولأنه عنصري شوفيني حتى تجاه العرب من غير أبناء قريته.

لقد سارع المستشار الألماني شريدور ،قبيل الاحتفالات بعيد تصفية الفاشية الهتلرية ، في مقالة خص بها صحيفة (كومسمولسكايا برافدا)الصادرة في موسكو (٢٠٠٥/٥/٧) بالاعتذار من الروس وشعوب الاتحاد السوفياتي السابق للمعاناة التي تعرضوا لها على يد الألمان في سنوات الحرب. وقال أيضا إن سقوط أكثر من ٢٧ مليون ضحية وتدمير المدن كارثة لايمكن تقدير فداحتها بالنسبة للاتحاد السوفياتي السابق" وان الألمان يظلون يشعرون بمسؤوليتهم وذنبهم عن ذلك بإزاء الشعب الروسي وغيره من شعوب الاتحاد السوفياتي السابق".

بإزاء هذا الشعور الرفيع بالمسؤولية التاريخية (تحمل ذنوب الآباء) ، لنعاين بلادة المسؤول العربي الذي يقترف جريمة بحق شعبه وأبناء أمته. انه يتجنب ويقاوم الاعتذار(على الرغم من ادعائه بالميول القومية) ومن ذهنيته ،التي شرحها المفكر الفلسطيني الراحل هشام شرابي، و التي ترى أن الاعتذار إهانة(صدام رفض الاعتذار للأكراد عن ابادتهم بالأسلحة الكيماوية ولشعب الكويت عن مغامرته ولإيران عن شن الحرب ،واخيرا لشعب العراق على ما عرضه له) ،حتى لو كان في قرارة نفسه يعترف باقترافه االكبائر. وهناك بين العرب من يفتخر بجرائم القتل والمعارك التي هزم ويجرأ على تسميتها بـ (أم المعارك) والإخفاقات بـ (الانتصارات التاريخية)، وبصف القتل المجاني بالمآثر لتحقيق الأهداف القومية وتجسيد الفكر التافه.(ثانية، أعيدوا قراءة عفلق لكي تتحققوا من هذا).

إن القتل العشوائي والمجاني والاستهانة بحياة الإنسان ليس طريقنا لبناء الدولة القوية التي تكفل لمواطنيها الأمن والحياة الكريمة. الإرهاب طريق العاجز والضعيف المستهتر بحياة الآخر بذريعة الوصول لتحقيق أهداف سامية. لم نسمع أن الإرهاب كان وسيلة لعظمة امة. إن العمل الدؤوب الجماعي والصبور الذي يخلق الظروف المناسبة لانخراط طاقات الأمة الواعية هو الطريق لبناء الدولة والصمود في وجه عاديات الزمن والتفاهم مع الآخر.

على خلفية الاحتفال بستينية النصر على الفاشية، لنستفد أيضا من التاريخ البشري مادامت قوانينه عامة، ولنعد قراءة تاريخنا وتراثنا باجمعه بتطوره، لنفهم كل حركة في موقعها التاريخي، فليس هناك ماهو ابدي في الحياة البشرية. فلنسن قوانين تحرم قتل الإنسان لأي سبب كان،ولنرفض الإرهاب طريقا لتحقيق الأهداف السياسية والقومية، ولنفهم لغة العصر لنتعايش فيه وننبذ لغة البندقية.

قراءة علي الوردي

علي الوردي و تأسيس الهوية العراقية

(٤.٢)

علي حاكم صالح

إن ظاهرة شيوع قراءة علي الوردي ، وهذا ما أود أن أشدد على دلالاته ، تنمو ليس فقط برغم التقييدات ، بل خلافاً لما توقعه هو نفسه ، ولما انتاب أحاسيسه ربما من المصير الذي قد تلقاه كتابته. فهو ينهي كتابه (الأحلام بين العلم والعقيدة) بـ(كلمة وداع) كما لو أن الرجل كان يودِّع قرّاءه إلى الأبد ، ويأتي وداعه هذا نتيجة (وتعبيراً عن!) تغير سياسي ؛ وهو قيام ثورة ١٤ تموز وإعلان الجمهورية. يكتب :"لابد لي من كلمة وداع أودع بها القارئ في خاتمة كتابي هذا الذي هو فيما أعتقد آخر كتاب أخرجه إلى الناس. ويخيل لي أن الكثيرين من القراء لا يأسفون لهذا الوداع ، ولعل البعض منهم سيفرح به".

وتأتي كلمة الوداع هذه بسبب تغير في "ذوق القارئ العراقي" بحسب تعبيره، يكتب : "لابد لي من أن أعترف هنا فأقول انه كتاب، إن كان يصلح لعهد مضى، فهو لا يصلح للعهد الثوري الجديد. أقول هذا من باب الاعتراف بالواقع وإن كان مرّاً. وهو اعتراف لابد من أن أبوح به لكي يكون القارئ على بصيرة من أمره حين يقرأ هذا الكتاب أو أي كتاب آخر من كتبي السابقة. هناك حقيقة لا يجوز لي أن أتناساها هي أن ذوق القارئ العراقي قد تغير تغيراً كبيراً إثر قيام الثورة. فبعدما كان القارئ يتلذذ ما أكتب ويكتب أمثالي من مواضيع اجتماعية ونفسية لا تمس السياسة إلاّ مساً خفيفاً، أصبح اليوم يريد من الكاتب أن يكتب في صميم السياسة وأن يعلن رأيه جهراً فيما هو حق أو باطل من المبادئ التي يتنازع حولها الناس ... فالذي لا شك فيه أن ثورة ١٤تموز كانت ثورة جذرية كبرى هزت عقول الناس وقلبت مفاهيمهم. وأعتقد أن عهد الثورة يحتاج إلى كتاب وأدباء من نوع جديد يختلف عن ذلك النوع من الأدباء والكتاب الذين اعتاد الناس عليهم في عهد مضى".

لا تحتاج ملاحظة الوردي الساخرة هذه إلى بيان يجلي مرارتها ؛ فهي تشهد . شهادة ستظل دائمة . على ما كان يسود ،وظل يسود، الأجواء الثقافية، حيث أصبح حديث الإيديولوجيا والأحزاب؛ أي حديث الحق والباطل، حديث التقدمي والرجعي، حديث (أنت مع من) هو الحديث الطاغي. وفي هذا الصدد يكتب: "الواقع أني حاولت في بدء الثورة أن أكتب للصحف مقالات أحلل فيها طبيعة الثورة. وبعد أن نشرت تلك المقالات شعرت أني كنت فاشلاً. فلقد كانت مقالات تافهة أو باردة في نظر الكثيرين، وجوبهت باللوم والعتاب من أجلها غير مرة. ويعلم الله أني شعرت بالأسف الممض حين وجدت نفسي عاجزاً عن مواكبة الثورة بقلمي كما كان المنتظر مني. ولكن الأسف لا يجدي في الأمر شيئاً".

وثمة إشارة بالغة الدلالة في هذا الصدد، يكتب :"لي كتب قد أعددتها للطبع منذ سنوات. وقد أعلنت عنها ذات مرة إعلاناً ساخراً فقلت :(إنها ستصدر بعد موت المؤلف إن شاء الله). وكان سبب هذا الإعلان الساخر أني كنت لا أتوقع أن تحدث الثورة عندنا في وقت قريب. والآن وقد حدثت الثورة بأسرع مما كنت أتوقع، فهل تراني قادراً على إخراج تلك الكتب العتيدة؟ كلا!". ويواصل: "من هذه الكتب المعدة للطبع كتاب بذلت في تأليفه جهداً كبيراً وأسميته (أخلاق أهل العراق). إنه على أي حال يبحث في عيوب المجتمع العراقي وما فيه من قيم سيئة وتطرف قد لا تحمد عواقبه أحياناً. وكل من يدرس الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مر بها الشعب العراقي في عهوده البائدة لابد أن يستنتج منها مثلما استنتجته. ولكني مع ذلك واثق بأني لو أخرجت هذا الكتاب لقابله كثير من القراء بالنفور. ولا لوم على القراء في هذا، فهم يطلبون من الكاتب في هذه المرحلة الثورية أن يكتب للشعب فيما يشجعه ويمجِّد أفعاله، لا أن يثبطه ويحصي عليه عيوبه". (١)

يبدوأن محرمات عهد ما قبل الثورة هي نفسها محرمات العهود الثورية ،لأن المجتمع هو هو نفسه لم يتغير؛ أو لأقل بعبارة لن يقبلها البعض: لأن الثورة لم تحدث.

ولكن لحسن الحظ أن ظل الوردي يكتب، ومن أهم ما نشره بعد تلك الثورة هو كتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) و (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته)، كما نشر كتابه الرئيس (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث)، الذي نشر أول أجزائه في العام ١٩٦٩ وكان آخرها قد نشر في العام ١٩٧٩ (اللافت للنظر أن قائمة كتب المؤلف المثبتة في آخر أجزاء كتابه هذا تشير إلى وجود جزء سابع للكتاب؛ فهل كان ذلك من قبيل الخطأ أم أنه توقف عن النشر تماماً بعد أن بلغت الجمهورية ذروتها في العام ١٩٧٩!).

فهل أخطأ الوردي في تقديره حين حكم بتغير (ذوق القارئ العراقي)؟ وهل يمكن لذوق القارئ أن يتغير بين عشية وضحاها؟ ربما. ولكن ثمة مؤشر تفصح عنه كتابة الوردي تبين السبب من وراء إعلانه عن كلمة وداعه، فهناك كلمات بسيطة تفسر الأمر في أحد وجوهه. يكتب الوردي: "لقد كنت في الخمسينيات مخيراً بين أمرين: أما أن أفصح عن الرأي بصراحة تامة فأذهب إلى السجن، أو أراوغ فيه وأداري فأتخلص من السجن ومن مغبة قطع الأرزاق. وبعد تأمل وتمحيص وجدت الأمر الثاني أجدى وأصلح لي وللقراء". بيد أن هذه الوسيلة لم تعد ناجعة في عهود الثورة، فتوسلُ المراوغة والمداراة يدل على فسحة واسعة في حرية التعبير داخل النظام السياسي نفسه، ويدل على عدم تشدد أجهزة مراقبة الكلمة. غير أن الحال صارت إلى العكس من ذلك، فقول الوردي إن القارئ اليوم أصبح يطالب الكاتب بإعلان رأيه جهاراً في شؤون السياسة يعني أن القارئ يريد أن يكون على علم تام بطبيعة توجهات هذا الكاتب أو ذاك كي يسهل عليه التصنيف، ومن ثم المراقبة والعقاب. فعهود الثورة لا تتحمل، ويبدو أنها ليست بحاجة إلى، ما يسميه الوردي (تحليل طبيعة الثورة)؛ ذلك أن التحليل يعني، من بين ما يعني، التفكير في الجوانب السلبية والإيجابية وكتابة ذلك كله في (مقالات باردة)، بحسب تعبيره؛ لأن الثوريين يرون العلم، والتفكير العلمي، بارداً دائماً، ولا يرون في ما يقومون به غير الإيجاب المطلق.

لعل فعالية القراءة، أعني قراءة كتابة علي الوردي التي تتجاوز الاختصاصات الأكاديمية، تشي بتغيرات مهمة طرأت على المجتمع العراقي ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين، وهي تغيرات قادت في الأخير إلى بزوغ ما يمكن تسميته الإحساس فكرياً ووجودياً بهوية لطالما أنزلت إلى مرتبة أدنى؛ أعني: الهوية العراقية، فهي كتابة تشبع، إن صح التعبير، لدى القارئ العراقي إحساسه بهذه الهوية، وتطامن من تشوفه إليها.

ولكن كيف ذلك؟

مما لا شك فيه أن كتابة علي الوردي كانت تسعى ،علمياً، إلى تأسيس هوية وطنية عنوانها الرئيس هو العراق، وإشاعة الوعي بهذه الهوية. وربما كان هذا الجانب هو أحد أهم الجوانب التي تؤسس لظاهرة قراءته كما أزعم. وهنا يمكن القول بكل ثقة إن كتابة علي الوردي الاجتماعية هي الكتابة الوحيدة التي سعت بروح علمية إلى تأسيس هوية أرضية هي العراق. فالحديث العلمي، لا الإيديولوجي، عن المجتمع العراقي، وعن الشخصية العراقية، والاستعانة بالتاريخ لفهمهما، وتجلية بنية، أو بنى، هذه الشخصية، بما في ذلك إبراز العيوب التي تتآكلها؛ أقول: إن هذا كله يرسخ، من الجانب الآخر وفي الوقت نفسه، هوية وطنية حقيقية، هي أرسخ وأصلب من كل ما تغنت به أحزاب وفئات زماننا العراقي الحديث. ويشيع في نفس قارئه العراقي. المتنوع قوميا ودينيا وطائفياً . الإحساس بهذه الهوية. إن أحد أهم أسباب هذا الشيوع هو رغبة القارئ العراقي الملحة باطراد في قراءة ذاته كما لو كانت هذه الكتابات قادرة على فك شفرته الوراثية إن جاز التعبير.

قد تثير هذه الإشارة استغراب البعض من جهة أن الهوية العراقية حقيقة قائمة في الواقع وفي النفوس. وهذا أمر لا شك فيه ربما. بيد أننا نستطيع القول إن هذه الهوية العراقية طرحت دائما طرحاً أيديولوجيا، وسياسياً، وشعاراتياً، ودائماً كانت ملحقة بعنوانات أكبر وأوسع؛ عنوانات غير حقيقية. وهنا لا نريد ،بأي حال من الأحوال ،ابتسار أو إلغاء الانتماءات الإنسانية العامة، ولكن الوجود العيني، أعني العراق، يأتي ليس فقط بالدرجة الأولى من حيث حساب المراتب، إنما هو الانتماء الذي يتجلى عبر وجود واقعي حقيقي أرضي، انتماء يجب أن يحدد، وان يكون منطلق، الفعل اليومي والسياسي؛ لأنه بهذا المعنى . وبهذا المعنى فحسب . يكون التفكير تاريخياً، إذ لا معنى، على الإطلاق، لانتماءات ليس لها من وجود غير الوجود الذهني، هذا من حيث المبدأ، أما من حيث ما كشفت عنه التجربة الطويلة المرة التي مرّ بها العراق فلقد تأكد بالمطلق عقم كل تفكير إيديولوجي تسير شعاراته وأفعاله إلى أبعد من ممكناته الواقعية والنظرية.

ومن جهة أخرى، تبدو كتابة علي الوردي أنها تفسر، أو تضع مقتربات تفسير، ما يمكن تسميته الواقع التاريخي الدائري الذي يعيشه العراق والإنسان العراقي (يكفي في هذا الصدد أن تقارن مفتتح القرن الماضي بمفتتح القرن الحالي لتتأكد من أننا عدنا إلى ما قبل ما كنا عليه). فالقارئ يجد في هذه الكتابات نوعاً من تفسير يؤصِّل ما يجري بروح علمية، أو يلقي الضوء على كنه الحقب الزمنية من تاريخ العراق التي يتناولها الوردي، كما لو كانت هذه الحقب قادرة بذاتها على رسم ملامح جوهر تاريخ البلد بأسره، ذلك أن ما يجري هو ، في التحليل المبدئي والنهائي إن أدركنا درس علي الوردي، لابدّ أن يُفسّر محلياً.

إنها كتابة (تصير) موضع عناية القارئ العراقي. ولهذا الفعل (تصير) دلالته هنا، وهي دلالة تجيء مطابقةً لغرضه الأصلي من كتاباته، فلقد كان علي الوردي يعي جيداً أن طبيعة المجتمع العراقي وشخصية الإنسان العراقي لابد أن يُدرسا من جهة صيرورة المجتمع التاريخية؛ فهذا أمر من شأنه أن يوفر فهماً أعمق وأسلم ببنية هذا المجتمع؛ ولنقل إنها بنية متشكلة في التاريخ وعبره. وميزة فكر كهذا أنه يحاول البقاء قدر الإمكان في حدود محايثة لهذه الصيرورة، بما ستوفره من قدرة على فهم نبضات هذا المجتمع من جهة أولى، وبما تقدر عليه من رسم حدود أولية وعامة لجغرافية هذا المجتمع السياسية والتاريخية والمستقبلية أيضاً. فميزة كتابة الوردي أنها حاولت أن (تؤصّل) شخصية الفرد، ومن ثمّ المجتمع، العراقي النفسية والاجتماعية تأصيلاً تاريخياً، ولكنه تاريخي محلي إن جاز التعبير، فالتاريخي لا معنى له على الإطلاق إلا إذا كان محلياً، وبخلاف ذلك يستحيل محض إيديولوجيا. لذلك، جاء الاجتماعي والتاريخي منضفرين معاً. يكتب علي الوردي في مقدمة الجزء الأول من كتابه (لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث): "عند دراستي للمجتمع العراقي ... أدركت أني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن ما لم أفهم الأحداث التي مرّت به في العهود الماضية، فكل حدث من تلك الأحداث لابد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حالياً وفي تفكيرهم". وكان قد نهج المنهج نفسه في كتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)، ويعبر عن نفس نهجه هذا بقوله: "في رأيي أننا لا نستطيع أن نفهم المجتمع العراقي في وضعه الراهن ما لم نرجع بدراستنا إلى الوضع الذي كان عليه هذا المجتمع في العهد العثماني".

فهل يوفر انبرام الكينونة الاجتماعية لمجتمع ما بتاريخه فهماً لطبيعة هذا المجتمع؟ ربّما تضمر كلمة (الانبرام) انفصالاً من نوع ما بين التاريخي والاجتماعي. وفي الحقيقة، أنه ما من حاجة إلى التشديد على أن الاجتماعي والتاريخي هما الشيء نفسه، وليسا فقط وجهين لعملة واحدة على نحو ما يقال عادة في مثل هذه المواضع (أو على ما يقول علي الوردي نفسه)، فكينونةُ المجتمع الاجتماعية هي حركتها في التاريخ، وتاريخ مجتمع ما هو هذه الكينونة. لذلك ،ستكون عقيمةً كل محاولة تنظر إلى مجتمع ما بمعزل عن تاريخ(ه)، وعقيمة أيضاً كل محاولة تحاول فهمه ضمن تاريخ كلي، أو ضمن لا تاريخ. يكتب علي الوردي: "عند صدور الأجزاء الأولى من هذا الكتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) أخذ بعض النقاد ينتقدونني على أني أصبحت مؤرخاً وأهملت الجانب الاجتماعي من التاريخ. مشكلة هؤلاء النقاد أنهم يفهمون علم الاجتماع فهماً محدوداً، أو مغلوطاً من بعض الوجوه. إن الحقيقة التي أود أن يعرفها هؤلاء النقاد هي أنه لا يوجد فاصل حدي بين التاريخ والاجتماع. فكلا الأمرين مترابطان، أو هما وجهان لشيء واحد". ويزيد على ذلك بقوله: "الواقع أن الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروساً لا تقل عن تلك التي يستمدها من التجول في أنحاء المجتمع. وبعبارة أخرى: إن تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعاً عن تجوله في المكان، كلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الإنسان".

ولكن الأهمّ من ذلك هو أن تاريخ مجتمع ما ليس فقط مجموع ما تراكم منه، إنما ما يمكن أن يتراكم أيضاً. وعليه، كان لابدّ أن تؤخذ كينونة المجتمع الاجتماعية لا من حيث ما تجلى منها عبر تاريخها، أو عبر فاصل من هذا التاريخ، إنما بما تضمره من ممكنات قد تشكل تاريخها القادم،بمعنى أن الصورة التي تتخذها مسيرة تاريخ مجتمع ما هي، ضرورة، تعبير عن خصائص وملامح كينونة هذا المجتمع. وبالنتيجة، فإن هذه الصورة ستظل قائمة ما ظلت هذه الكينونة.

بهذا المعنى الأولي تحمل كتابة علي الوردي مسحة التفكير العلمي؛ بمعنى التفكير الذي يشخص، استقرائيا، جوهر الأزمة المستديمة تاريخياً، التي ستبقى كذلك مهما تغير الزمان ومهما تغيرت الشعارات السطحية، مادامت أسباب هذه الأزمة قائمة. وبهذا المعنى، أيضاً، تصبح الكتابة عن المجتمع ليست فقط كتابة عن ماضيه وحاضره، بل هي كتابة عن مستقبله، فالجانب الاستقرائي الذي يوفر معرفة بما حدث ويحدث، يوفر أيضاً فهماً بما سيحدث. وهنا يتمم فعلُ التأويل الاجتماعي عملية الاستقراء. والتأويل ،هنا، توقع ما سيفضي إليه القائم الذي كشف عنه الاستقراء. بالطبع، نحن هنا لسنا في حقل الممكنات المادية، إنما هي دراسة لممكنات إنسانية، ولكن على الرغم من أن هذا يتسم بقابلية للتنبؤ والتوقع الدقيقين، تظل، مع ذلك، ممكنات تستمر على منوالها نفسه الذي تحقق مادامت مشكلاتها وملابساتها العقدية قائمة، بل أن المشكلات الاجتماعية التي تظل مستمرة لا تبقى على حالها أبداً، فهي ستتضخم وتستطيل إلى حد يصعب ضبطها، فضلاً عن صعوبة التكهن بنتائجها المستقبلية. وأظن أن مشكلاتنا الاجتماعية التي لم تعالج، أو لم تتناول بشكل علمي موضوعي، تضخمت إلى حد أن آلت الأمور إلى أسوأ صورة ممكنة (على الرغم منم أن ليس للسوء قرار).

إن انبرام التاريخي بالاجتماعي، مقوداً بفهم محلي، لابد أن ينطوي على الفهم، والتوقع. وأظن أن كتابة علي الوردي، بقدر ما كانت تكشف عن طبيعة المجتمع العراقي، كانت تحذر، أيضا، من أن تأخذ هذه الطبيعة صوراً غير حميدة؛ فكان ما جاءت به صروف الزمان مصداقاً على ذلك. وهذا معناه أن جوهر تاريخ مجتمع يرشح (وسيظل يرشح) من خلال كينونته الاجتماعية. لهذا سيكون من الطبيعي تشخيص هذه الكينونة إجراءً تاريخياً وعلمياً.

وفهم كهذا لا يمكن أن يبلوره التفكير الإيديولوجي أياً كانت جهته، وأياً كانت منطلقاته ومشاربه.

هامش

١. وَعَدَنا الكاتب بمجموعة كتب لم تظهر الى الآن على الرغم من كل هذه السنين التي مرت، و على الرغم من رحيل الرجل منذ سنوات، وهي(العراق وقيم البداوة) أنظر هامش رقم ٢ صفحة ٢٠ من كتابه (وعاظ السلاطين) وكذلك هامش رقم ٣١ من كتاب (مهزلة العقل البشري)، ص٢٠٣، وهامش رقم ٣ من الكتاب نفسه، ص١١٢؛ وكتاب آخر هو (منشأ الحركات الاجتماعية في الإسلام)، هامش رقم ١صفحة ٢٣ من الكتاب نفسه، وكتاب بعنوان (الحقيقة الغائبة في الإسلام)، أنظر هامش رقم ٣ من الكتاب نفسه، ص ٢٤٨، وكتاب (أخلاق أهل العراق)، أنظر ص٢٦ من كتاب (الأحلام بين العلم والعقيدة) .